

المجلد
الكتاب

ثلاثون مجلساً في الحديث

مجالس علمية وإيمانية

الجمعة السابعة

إعداد اللجنة العلمية

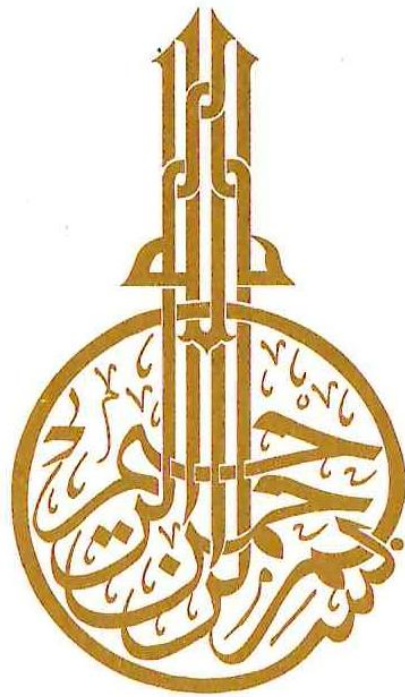
الطبعة الأولى

ثلاثون مجلساً في الحديث

ثَلَاثُونَ مَجْلَدًا فِي التَّبَايُحِ

مَجَالِسِ عِلْمِيَّةٍ وَإِيمَانِيَّةٍ

الْمَجْلَدُ الثَّلَاثُونَ



الحمد لله ربّ العالمين، الذي أمرنا بتدبر كتابه المبين، والصلاة والسلام على قُدوة المتدبرين، وسيّد الأولين والآخِرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعدُ، فيُساعدنا أن نضع تحت يدك أيها القارئ الكريم المجموعة السادسة من هذه السلسلة المباركة (ثلاثون مجلسًا في التدبر)، التي كتب الله لها القبول بفضلها، وراجت في أوساط أهل القرآن بمنّته، فله الحمدُ دائمًا على واسع كرمه.

وقد مضت هذه المجموعة على سنن ما سبقها، بتناول آيةٍ واحدة في كلّ مجلس، مختارة من جزءٍ من أجزاء القرآن، فهي إذن ثلاثون مجلسًا من ثلاثين جزءًا من كتاب الله الكريم، مرتّبةً على ترتيب الأجزاء. ومن ها هنا جاءت موضوعاتُ المجالس متنوّعةً متباينةً، بتنوّع موضوعات القرآن وثراء معانيه. والغرض منها أن تكونَ نماذجَ تطبيقيةً في التدبر لعموم المسلمين.

راعينا في هذه المجموعة:

- وضع عنوانٍ مناسبٍ لكلِّ مجلس، معبرٍ عن فحوى الوقفات التدبرية في الآية المتناولة فيه، مع إثبات نصّ الآية موضوع المجلس؛ لتكونَ نورًا على نور.
- ألا يزيد المجلس الواحد على صفحتين؛ تيسيرًا على القارئ، وإعانةً للأئمة على أن يقرؤوها على أهل المسجد في وقتٍ قصير.

- تحرير المجالس وتصحيحها، وتخريج ما فات كاتبها من تخريج أحاديثها، أو عزو نقولها.

- ضبط كل ما هو مظنة أن يُشكل على القارئ المتوسط الثقافة قراءته على وجهه الصحيح.

هذا، ونحث الأئمة في مساجدهم، والمدرسين في حلقتهم، والمعلمين في مدارسهم، والآباء والأمهات في بيوتهم، على استثمار شهر القرآن رمضان، بالاجتماع على هذه المجالس مع من جعلهم الله تحت رعايتهم؛ قراءة وتفكيراً وانتفاعاً، بقراءة مجلس واحد في كل يوم، لن تستغرق قراءته سوى دقائق معدودات، ولكن أثره المرجو مع انقضاء الشهر سيكون بلا ريب عظيماً جسيماً.

أما أنت أيها القارئ الكريم، فإن هذه السلسلة ما كان لها أن تستمر، ولا أن تزداد نُضجاً وارتقاءً في آفاق التجويد، لولا حسنُ اهتمامك، وصدقُ نصحك وتعاونك، فلا تحرمننا من ملحوظاتك؛ لتبقى شريكاً لنا في نشر سنة التدبر على ما يحبُّ ربُّنا ويرضى، ويا لها من غنيمة!

وختاماً نشكر لكل من شارك في الكتابة لهذه المجموعة جهده وحرصه، سائلين المولى الكريم سبحانه أن يتقبل منا ومنهم صالح العمل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رئيس اللجنة العلمية

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

عُرة شعبان ١٤٣٨هـ

حَقُّ التَّلَاوَةِ (١)

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾

يقول الحق سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

فما حقُّ التلاوة المذكورُ هنا؟

لعلَّ في بيان المعنى العامِّ للآية جوابًا عن السؤال، وهو:

إنَّ الذين منَّ الله عليهم بالكتاب من المؤمنين يتبعونه حقَّ اتباعه؛ فيحلُّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ويعملون بمُحكِّمه، ويؤمنون بمتشابهه؛ فهؤلاء هم المؤمنون بالكتاب حقًّا، المتبعون له صدقًا.

وها هنا وَقْفَتَانِ تَدْبِيرِيَّتَانِ:

الْوَقْفَةُ الْأُولَى: وَقْفَةٌ تَأْسِيسِيَّةٌ مَهْمَةٌ، وَهِيَ أَنَّ التَّدْبِيرَ الْمَحْمُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ؛ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَعْنَى (التَّلَاوَةِ) فِي الْآيَةِ لَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْ تَدْبِيرِهَا تَدْبِيرًا صَحِيحًا، وَلَنْ يَكُونَ عَمَلُهُ بِهَا مُسْتَقِيمًا.

والتَّلَاوَةُ هُنَا لَا تَقْتَصِرُ عَلَى الْقِرَاءَةِ فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ أَعْمٌ وَأَشْمَلٌ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَهُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي بَيَانِهِ لِلْمُرَادِ بِهَا؛

(١) كتبه: د. محمد بن عبد الله القحطاني، الأستاذ المشارك في جامعة الملك خالد بأبها.

إذ قال مُقسماً بالله: «والذي نفسي بيده، إِنَّ حَقَّ تلاوته: أن يُحَلَّ حلاله، ويُحَرَّمَ حرامه، ويقراه كما أنزله الله، ولا يُحَرِّفَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِهِ، ولا يتَأَوَّلَ منه شيئاً على غير تأويله»^(١).

فما أحرانا أن نحريص على فهم معاني القرآن حرصنا على قراءة ألفاظه وتجويد حروفه؛ فإنَّ معرفة المعاني أهمُّ وأولى من ترتيل المباني.

الوقف الثاني: تقرّر الآية حقيقةً شرعيةً كبرى، وهي أنَّ الشان في تأدية جميع الأعمال التي شرعها الله لنا ليس في القيام بها على أيِّ وجه، وإنما في القيام بها على الوجه المشروع. وهذا مقامُ الإحسان الذي هو أعلى مقامات العبادة وأخصُّ مراتب الدين.

فما أكثر العاملين، ولكن ما أقلَّ المحسنين الذين يؤدّون عملهم على الوجه المشروع!

فليس الشان في (يتلونه)، ولكن في (حقّ تلاوته)!

وإذا تقرّرت هذه الحقيقة؛ فإنه ينبغي لكلِّ حريصٍ على الخير أن يُعنى بتجويد عمله وإتقانه، وأن يعلم أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقوتين: قوّة علميّة سابقة للعمل، تمكّنه من معرفة أحكام دينه. وقوّة عمليّة في أثناء القيام بالعمل، تجعله يحرص على إتقانه وإحسانه؛ طلباً لمرضاة الله، واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ.

اللَّهُمَّ وَفَّقْنَا لَطَاعَتِكَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيكَ عَنَّا، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَتْلُو كِتَابَكَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

(١) أخرجه الطبريُّ في تفسيره ٢/ ٤٨٩.

نِعَمَ الْمَكَافَأَةِ^(١)

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى في سورة البقرة امتنانه على عباده بعددٍ من التَّعَمُّ؛ كتحويل القبلة، وبعثة محمد ﷺ وغيرها، قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وهي تربية قرآنية للعباد على شكر نعم الله الشرعية؛ كتحويل القبلة والبعثة. والحسيّة؛ كالأرزاق المعلومة. وإنَّ من أعلى صُور الشُّكر ذكره تعالى، حيث جاء التعقيبُ على آية بعثته بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾.

وذكره تعالى لا يقتصر على تحريك اللسان بالذكر المعتاد، بل يشمل ما هو أعمُّ من ذلك، وهو تذكُّر عظمته وصفاته تعالى، وما أثنى به على نفسه، وأثنى به عليه رسوله ﷺ، وما ترتب على ذلك من الأوامر والنواهي. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، أي: ذكروا أمره ونهيّه، فاستغفروا ممَّا فعلوا^(٢).


يا لها من كرامةٍ حين يكون جزاءُ ذِكْرنا لرَبِّنا أن يذكُرنا فيمَن عنده!

(١) كتبه: أ.د. عمر بن عبد الله المقبل، أستاذ الحديث بجامعة القصيم، ونائب رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.

(٢) انظر: الفوائد، لابن القيم ص ١٢٨.

فَمَنْ نَحْنُ لِيَذْكُرْنَا الرَّبَّ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ فِي عَليَائِهِ؟ وَأَيُّ فَضْلٍ جَادَ بِهِ الرَّبُّ الرَّحِيمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ الَّذِينَ لَا نُشَكِّلُ إِلَّا ذَرَّةً مُحَدَدَةً فِي هَذِهِ الْعَوَالِمِ الَّتِي تَسْبَحُ لَهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا؟

وعلى أننا عبيدٌ مثقلون بذنوبنا ومعاصينا؛ نذكره فيذكرنا، مع يقيننا أن ذكره لنا أعظم من ذكرنا له! إنه الفضل الذي لا يُفيضه إلا الله الكريم، الذي لا خازنَ لخزائنه، ولا حاسبَ لعطاياه.

ووالله لو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً، كما يقول ابن القيم .

وقد ثبت في الصحيحين، يقول الله في الحديث القدسي: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأْ خَيْرٍ مِنْهُ»^(١). إنه فضل لا يصفه لفظ، ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب شكراً لله، وترجمه دموعُ الفرح بفضل الله وكرمه وجوده.

إن ذكر الله ليس مجرد نطقٍ باللسان والقلب غافل، بل هو انفعال القلب مع اللسان، والشعورُ بفضل الله وجوده، والتأثرُ بهذا الشعور تأثراً يُفضي إلى الانقياد للطاعة وترك المعصية، وكأن القلب يشاهد منة الله وفضله. هنا يذوق العبدُ لذة الذكر، وطعم العبودية، ويسجد بعدها سجدة لا يشتهي أن يرفع رأسه منها. فاللهم اجعلنا من عبادك الدَّاكرين، وأوليائك الشَّاكرين، وأعِدنا من حال الغافلين والمحرومين.

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

وَعِيدٌ وَوَعْدٌ^(١)

﴿يَمْحُوقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾

قانون إلهي لا يتخلف، يقرره خالق الخلق ومدبره، وإله الكون ومالكه، في قوله: ﴿يَمْحُوقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ مبيِّنا سوءَ عاقبة الرِّبا في الدنيا بعد أن بيَّن عاقبته في الآخرة، ومبيِّنا خيرَ عاقبة الصَّدقة في الدنيا بعد أن بيَّن عظيمَ أجرها في الآخرة.

إنه العذابُ الأدنى قبلَ العذابِ الأكبرِ لمُرتكبِ كبيرة الرِّبا، والحسنةُ المعجَّلة في الدنيا قبلَ الحسنةِ المؤجَّلة في الآخرة للمُنفقِ المتصدِّق. فهو وعيدٌ ووعدٌ في الدارين.

أمَّا الوعيدُ فهو محقُّ الرِّبا، أي محوُه وإزالته وإبادته، وإتلافُ ما حصل منه في الدنيا، (ومنه مُحاقُ القمر، أي: ذهابُ نُوره ليلة السَّرار، وهي آخرُ ليلةٍ من الشَّهر)^(٢).

وأمَّا الوعدُ فهو إرباءُ الصَّدقات؛ أي: الإخلافُ على صاحبها بأضعافٍ مضاعفة في الدنيا قبل الآخرة. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

(١) كتبه: د. محمد بن حسان الطيَّان، أستاذ العربيَّة في الجامعة العربيَّة المفتوحة بالكويت، وعضو مراسلٍ بمجمَع اللغة العربيَّة بدمشق.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٩١/٣.

وقد صَوَّرَ لنا رسولُ الله ﷺ هذه المضاعفةَ أجملَ تصويرٍ إذ قال فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، كَأَنَّهَا إِنَّمَا يَضَعُهَا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ فَيُرِيئُهَا كَمَا يُرِيئُ أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(١).

إنَّ الرَّبَّ يَمَثِّلُ أَقْصَى حَالَاتِ الْجَشَعِ عِنْدَ الْمُرَابِيِّ؛ إِذْ يَبْتَرُ أَخَاهُ الْإِنْسَانَ مُسْتَعْلًا حَاجَتَهُ لِلْقَرْضِ وَالْمَالِ حِينَ قَرَضَهُ، وَمَقْتَنَصًا مِنْ قُوَّتِهِ وَمَالِهِ مَا يَسْتَطِيعُ اقْتِنَاصَهُ دُونَ شَفَقَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ حِينَ اسْتَرْدَادِهِ، لِذَا كَانَ الْمَحْقُ فِيهَا عَظِيمًا، وَالْعِقَابُ فِيهَا جَسِيمًا، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالصَّدَقَةُ تَمَثِّلُ أَرْقَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ الْمَرْءُ مِنْ كَرَمٍ وَجُودٍ وَإِيثَارٍ وَنُبْلِ؛ إِذْ يُعْطَى بِلَا مَقَابِلٍ، وَيُنْفَقُ دُونَ انْتِظَارِ سَدَادٍ أَوْ شُكْرٍ أَوْ عَطَاءٍ، وَلِذَا كَانَ الْإِخْلَافُ فِيهَا كَبِيرًا، وَالشَّوَابُ فِيهَا جَزِيلًا، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

بَقِيَ أَنْ يَتَأَمَّلَ قَارِئُ الْآيَةِ هَذَا الْإِبْدَاعَ الْبَلَاغِيَّ فِيمَا يُسَمَّى (جِنَاسَ الْإِشْتِقَاقِ) بَيْنَ الرَّبِّ وَرَبِّي.

اللَّهُمَّ طَهِّرْ أَمْوَالَنَا مِنَ الرَّبَا وَعُجْبَارِهِ، وَزَكِّهَا بِالصَّدَقَاتِ وَالْمِبْرَاتِ وَالْخَيْرَاتِ.

(١) السنن الكبرى، للنسائي ١٥٥/٧.

مِحْرَابُ الْعِبُودِيَّةِ (١)

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾

أيها العبدُ، إذا عَزَمْتَ على أمرٍ ذي بال فتوَكَّلْ على الله تعالى، بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة، معتمداً على حَوْلِ الله وقوَّته، متبرِّئاً من حَوْلِكَ وقوَّتِكَ (٢)؛ مستحضراً قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن التوَكَّلَ من أعظم أعمال القلوب، وهو علامةٌ على تعظيم العبد ربَّه، ويقينه بأسمائه وصفاته، وإيمانه بقوَّته وقُدْرته، وعلمه وحِكْمته، ولطفه وبرِّه. والتوَكَّلَ مِحْرَابُ الْعِبُودِيَّةِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَسْجُدُ فِيهِ كُلُّ ذَرَّةٍ فِي الْعَبْدِ لِرَبِّهَا، وتستكين لمولاهها، وتُلْقِي بِأَزِمَّةِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ.

وقد جعل الله التوَكَّلَ أَوَّلَ خُطْوَةٍ بَعْدَ الْعَزْمِ وَالْإِرَادَةِ، بِدَلَالَةِ فَاءِ الْعَطْفِ الْمَفِيدَةِ لِلتَّعْقِيبِ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ حِينَ يَعْزُمُ عَلَى عَمَلٍ مَا تَأْتِيهِ خَوَاطِرُ الثَّقَةِ بِنَفْسِهِ وَبِقُدْرَتِهِ، وَالاعْتِمَادَ عَلَى حَوْلِهِ وَقوَّته، فَإِذَا فَوَّضَ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ فِي حَالِ الشُّرُوعِ فِي الْعَمَلِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِ اعْتِمَادِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَتَبَرُّئِهِ مِنْ حَوْلِ نَفْسِهِ.

(١) كتبه: د. عبد الله بن بلقاسم بن عبد الله.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، لابن سعيدي.

ولو تأملنا في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ لرأيناه سبحانه لم يذكر المعمول؛ للدلالة على العموم. فالتوكل قرين أنفاس المؤمنين في كل أحوالهم وشؤونهم، لا يطلبون أمراً دينياً أو دنيوياً إلا كانوا فيه معتمدين على ربهم وحده. فهم متوكلون في حال الضعف والقوة، يستشعرون على الدوام فقرهم الاضطراري الكلي إلى الله، ويشهدون من أنفسهم على حال الضعف والفقر إلى مولاهم.

وإن من أعظم بواعث التوكل شعور العبد أن الله يحبّه لتوكله. والمحبة أعظم مقامات العبد عند ربه، فلو ذهبت مقاصد التوكل كلها ولم يبق له منها إلا تحصيل هذه المنزلة السامية، منزلة محبة الله إياه لكان جديراً باجتهد المؤمن بالتوكل على الله، وتربية النفس عليه، وبذل الأسباب في امتلاء القلب به.

المتوكلون يحبهم الله؛ لأنهم حققوا منازل العبودية الحقة بتعظيمهم ربهم، ويقينهم بربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وحصلوا أعلى مراتب الدين بيقينهم بقرب ربهم منهم.

كل لحظة توكلٍ أيها العبد تمنحك حباً من الله وقرباً.
وكل عملٍ تفتتحه بتوكلٍ يفتح لك به بابٌ إلى محبة الله.
وكلما عظم توكلك على الله نلت من محبته بقدر ذلك.
فاللهم اجعلنا من عبادك المتوكلين عليك حق التوكل.

شَتَان ما بين إرادة وإرادة^(١)

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾

يا له من تكريم للإنسان، لا يُدرك مداه إلا مَنْ يستشعر حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية! فمن تأمل قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] يُدرك مدى التلطف الكريم من الربِّ المعبود العظيم جلَّ في علاه بمخلوقه العاجز الضعيف.

فماذا يريدُ الله بالناس، حين يبيِّن لهم منهجه، ويشرع لهم سنَّته؟

إنه يريدُ أن يتوبَ عليهم، يريد أن يهديهم، يريد أن يجنِّبهم المزالق، يريد أن يُعيِّنهم على التسامي في المرتقى الصَّاعد إلى القمَّة السامقة.

وماذا يريدُ الذين يتَّبعون الشَّهوات، ويزيِّنون للناس مذاهبَ لم يأذن بها الله، ولم يشرعها لعباده؟

إنهم يريدون لهم أن يميلوا مَيْلًا عَظِيمًا عن المنهج الراشد، والمُرتقى الصَّاعد، والطريق المستقيم^(٢).

ما أعظمَ حِلْمَكَ يا ربِّ، وما أكرمَكَ، وما أطفَكَ!

(١) إعداد اللجنة العلميَّة.

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢/ ٦٣١.

تدعو الإنسان إلى التوبة، وتحثه عليها، وتريدها له برحمةٍ وحَدَبٍ ولطْفٍ وحنوً وتخفيف. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

على حين يدعو أربابُ الشَّهَوَاتِ والمعاصي الإنسان إلى الانحراف عن منهج الله، والوقوع في العصيان، وإطلاق الغرائز. يريدون له أن يميل ميلاً عظيماً مع ملذاته وفساده؛ لأنَّ ذلك يُتيح لهم المزيد من التفلُّت، والمزيد من الشَّهَوَاتِ، والمزيد من الملذَّات.

ومعنى ﴿يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يتقبَّل تَوْبَتَكُمْ، إذ آمنتم ونبذتم ما كان عليه أهلُ الشُّرِكِ والأهواء والشَّهَوَاتِ والانحراف عن منهج الله، فلا تنقضوا ذلك بارتكابِ الحرام.

فالآية تحريضٌ على التَّوْبَةِ بطريق الكِنَايَةِ؛ لأنَّ الوَعْدَ بقبولها يستلزمُ التَّحْرِيزَ عليها^(١)؛ مصداق ما ورد في حديث النبي ﷺ إذ قال: «يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فيقول: هل من سائلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هل من مُسْتَغْفِرٍ فَأُغْفِرَ لَهُ؟ حتى يَطْلُعَ الفجر»^(٢).

جعلنا الله ممَّن يرتقي لمُرادِهِ فينصاعُ لأمرِهِ، وعصَمنا من الميل مع أهل الأهواء والشَّهَوَاتِ.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٠/٥.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٦٧٤٥) الرسالة، ٨١/٤ الميمنيَّة.

الفتنة الكبرى^(١)

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾

قد أحاط ربنا بكل شيء علما، وقهر كل مخلوق عزّة وحكما، لا يُخْرِجُ عن سُلْطَانِهِ، ولا يُسْتغنى عن فضله وإحسانه، أوجد الخلق من العدم، وأمدهم بوافر النعم، وصنع الإنسان بفطرة التوحيد والإيمان، وبث من الدلائل على وجوده ووحدانيته ما يأخذ بناصية عبده إليه، ويلزم قلبه وعقله بالإقبال عليه. ثم أرسل بعد ذلك الرسل وأنزل الكتب؛ ليرشده إلى ما يصلح به معاشه ومعاده، فلا يضل في دنياه، ولا يشقى في أخراه.

ونعم البشر بتوحيد ربهم وعبادته وحده لا شريك له قرونًا عشرة، ثم دب إليهم الشرك، فاختلفوا وافترقوا، وتعاقبت على ذلك الأمم؛ ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ فموقف مستجيب لداعي الإيمان ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ومفتون مخذول بالكفر والشكران، لم يرفع بهدى الله رأسا، ولم يزدد بآياته إلا بؤسا، حاله كحال الملأ من قوم فرعون الذين جحدوا من بعد ما رأوا الآيات بينة مبصرة ﴿وَجحدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]،

(١) كتبه: أ. رامي بن أحمد ذو الغنى، مجاز في الشريعة الإسلامية من جامعة دمشق، المدير الأكاديمي والتعليمي بمدارس أضواء الهداية الأهلية في الرياض.

وكحال الذين استحبوا العمى على الهدى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ
الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].

وكل من استكبر معرضاً عن الهداية؛ أعرض الله عنه، ووكَّله إلى نفسه،
وصرفه عن الحق، وأركسه في خبثه؛ جزاءً وفاقاً، وقضاءً عدلاً ﴿ وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ
وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فالأنبياء والمرسلون عليهم هداية الدلالة والإرشاد ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٩٩]، وعلى الله هداية التوفيق؛
يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

قد رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَعَتِ الصُّحُفُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، وكلُّ
ميسرٍ إلى عمله الذي كتبه الله عليه بسابقِ علمه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

والتالي للقرآن حقُّ التلاوة إذا ما تدبَّر قولَ العليم الخبير: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ
اللَّهَ فِتْنَتَهُ ۗ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة: ٤١]؛ وَجَلَّ قَلْبُهُ، وَخَشِيَ عَلَى
نَفْسِهِ، وَلَجَأَ إِلَى رَبِّهِ عَائِدًا بِهِ مِنْ شَرِّ فِتْنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ، وَالْعَبْدُ
فَقِيرٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَتَقَلَّبُ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ.

فَاللَّهُمَّ عَامِلِنَا بِفَضْلِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا ظَرْفَةَ عَيْنٍ.

لا يستويان^(١)

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾

الكثرة تُعجب وتُغرُّ؛ تأخذ العين وتخدع الحس. وإنَّ تمييز الخبيث من الطيب ووزنه بميزان الله والشرعية يحتاج إلى النباهة والفطنة، وبعْد النظر والحَنكة من أصحاب العقول السليمة.

ومن ها هنا أرشد القرآن الكريم إلى عدم الاغترار بكثرة الخبيث، والإعجاب به إعجاباً يحمل على إثارة وتقديمه على القليل الطيب، قال تعالى:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وإنَّ ما نتوهمه في الكثرة من الفضل، لا يعدلُ النقصان في الخبيث، وفوات الطيب، وهو عامٌّ في حلال المال وحرّامه، وصالح العمل وطالحه^(٢). والخبيث: كلُّ ما يُكره رداءً وخساسة، محسوساً كان أو معقولاً، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبیح في الفعّال^(٣).

والنفس حين تتحرّر من قيود الهوى بملازمة التقوي تختار الطيب على الخبيث، وتؤثر الحقّ على الباطل، فينتهي أمرها إلى النجاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة.

(١) إعداد اللجنة العلميّة.

(٢) انظر: الكشّاف، للزمخشري ١/ ٦٨٢.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ص ٢٧٢.

والمؤمن الذي يزنُ الأمورَ بميزانِ الحقِّ القويم، عندما يرى أهلَ المِلَلِ الضالَّةَ منتفشينَ ظاهرين، وأهلَ الباطلِ مصدرينَ مقدرين؛ لا تضطربُ يده، ولا يزوغُ بصره، ولا يختلُّ ميزانه، ويختارُ عليهم أهلَ الصِّدقِ والاستقامة، وإن قلَّ عددهم، وضعفَ حالهم.

أمَّا الذين يستخفُّونَ بالطيبِ لُخْفوتِ صوتِهِ، أو احتجابِ صَوْتِهِ، فإنما هم مخدوعون في أبصارهم، مصابون في بصائرهم، لا يرون من الأشياء إلا ظاهرها، ولا يعلمون من الأمور إلا قشورها، أمَّا الصِّمِيمُ فهم في عمى عنه، وأمَّا اللُّبَابُ فهم على جهل به؛ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٤٧].

أجل، إِنَّ الآيَةَ لتحتُّنا على أن ننظرَ إلى الأشياء بحقائقها ومعانيها، لا بأشكالها ومبانيها، وأن نستعملَ عقولنا في معرفة الحقِّ والخير، والتعامل مع الطيبِ والحسن، ففي ذلك يكون الفوزُ في الدارين.

ولله دَرُّ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضِ رحمه الله إذ يقول: اسلك طريق الحقِّ ولا يغرك قلة السالكين، وإيَّاكَ وطرق الباطلِ ولا يغرك كثرة الهالكين.

إِيَّاكَ وَبُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ (١)

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُذْئِقُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وصِيَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ تَبَيَّنَ لِلنَّاسِ الطَّرِيقَ الْأَسْلَمَ، وَهُوَ صِرَاطُ اللَّهِ جَلَّ فِي عُلَاهِ، فَتَأْمُرُهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْمَسِيرِ فِيهِ، وَتَنْهَاهُمْ عَنِ سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمَتَفَرِّقَةِ وَالشُّعَابِ الْمَخْتَلِفَةِ الَّتِي تَنْحَرِفُ بِهَمٍّ عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، ثُمَّ تَخْتَمُ بِبَيَانِ الْعِلَّةِ وَالْغَايَةِ مِنْ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ وَهِيَ التَّقْوَى.

وتأتي هذه الوصيَّة بعد سلسلةٍ من الآيات بيَّنت ضروريًّا من الضَّلالات والانحرافات لدى المشركين وأهل الكتاب وأهل الزَّيغ والأهواء؛ كقتل الأَوْلَادِ، وتحريم أنواعٍ من الأنعام، أو ممَّا حَمَلَتِ الأنعام، وسلسلةٍ أخرى بيَّنت ضروريًّا من أوامر الله ونواهيه صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِآيَاتِهِ وَإِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ لَمُنْقِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] ثم تعطف هذه الآية عليها.

(١) كتبه: د. محمد بن حسان الطَّيَّان، أستاذ العربيَّة في الجامعة العربيَّة المفتوحة بالكويت، وعضو مراسلٍ بمجمَع اللغة العربيَّة بدمشق.

ولا ريب أن خير توضيح لهذه الوصية ما جاء في الأثر من أن رسول الله ﷺ، خَطَّ خَطًّا بيده، ثم قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً»، قال: ثم خَطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السُّبُلُ، ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ (١).

والتأمل في هذه الوصية يلحظ أموراً عدة أهمها:

- نسبة الصراط إلى رسول الله ﷺ، وصراط الرسول هو صراط الله الذي أمرنا بالتزامه، وندعو الله أن يهدينا إليه (٢).

- تقييد الصراط بالحال (مستقيماً)؛ أي: لا اغوجاج فيه؛ لأنَّ الطريق المستقيم أيسرُ سلوكاً على السائر.

- إفراد الصراط المستقيم، وجمع السُّبُل المخالفة له؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ لا يتعدَّد، والباطل كثيرٌ يشمل الأديان الباطلة سواء كانت وضعيَّة أو سماويَّة محرَّفة أو منسوخة، ويشمل المبادئ الباطلة الهدامة التي تستهوي أهل الضلال (٣).

- حذف التاء من الفعل (تفرَّق) تخفيفاً في اللفظ، وإيجاءً بسرعة الفعل.

فالفائزُ الفائزُ مَنْ لزم صراط الله، والخاسرُ الخاسرُ من تتبَّع السُّبُلَ وحادَ

عن سبيل الله.

(١) رواه أحمد في المسند (٤٤٣٧) الرسالة، ١/ ٤٦٥ الميمنية، من حديث ابن مسعود، وهو حسن.
(٢) هذا على قول من نسب الصراط في الآية إلى الرسول ﷺ، وهو قولٌ سائغ في العربيَّة، انظر: البحر المحيط، لأبي حيان وغيره.

(٣) قبسٌ من القرآن الكريم، لشيخ قرَّاء الشام محمد كريم راجح ص ١٤٩.

حِصْنُ الْمُتَّقِينَ^(١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾

إنَّ الحياة الدنيا ساحة معركة بين الحقِّ والباطل، وليس بين الشيطان وأهل الإيمان هُدنةٌ يكفُّ فيها عن كيدِه لهم، ومكره بهم، وهذا يوجبُ على المؤمن التمسُّكَ بالحسِّ الأُمِّيِّ الإيمانيِّ، والرِّباط على حُصون اليقظة التامة، فكم يودُّ الشيطان أن يغفلَ المؤمن عن سلاحه؛ ليميلَ عليه ميلةً واحدة، فإن لم يقتله جرحه وآذاه.

فيا أيُّها المؤمن، إذا بلغتَ درجة التقوى فلا تظنَّ أنك قد صرتَ في مأمنٍ من عدوِّ الله إبليس، كلاً؛ فإنه يتربَّص بك الدوائر، وينصبُ لك الحبائل، فانتهبه! فإذا وقعت في شركه فأطلق نفسك سريعاً بتذكُّر وعدِ الله ووعيده، فتلك يدُ الإنقاذ التي تخلِّصك من أغلال الشيطان، وتعيدك إلى حصن الرحمن؛ لتسلكَ في سلك المتقين الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وفي هذه الآية لفتاتٌ ثريةٌ بالفائدة، نتوقَّفُ عند بعضها:

- افتتحت الآية بحرف التوكيد (إنَّ)؛ تنبيهاً على ضرورة الاهتمام بما سيأتي فيها^(٢)؛ من وصية ربَّانية عظيمة، تكفل للمتقين الرجوعَ إلى الحقِّ إن جنحوا عنه قليلاً.

(١) إعداد اللجنة العلميَّة.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٨/ ٤٠٣.

- ورد الفعل (اتَّقُوا) بصيغة الماضي؛ دلالةً على تحقُّق التقوى فيهم، وأنَّ غير المتَّقين لن يكونَ مألُهم مع وسوسة الشيطان كمال المتَّقين.

- في استعمال (إذا) إشارةً إلى تحقُّق وقوع المتَّقين في قيود الشياطين، فهم ليسوا معصومين، ولم يأتِ بـ (إن) التي تدلُّ على الشكِّ في وقوع الأمر.

- عبَّر بكلمة (طائِف) عن الخفاء، والإتيان من غير مقدِّمات، وهي تشمل: الغضب، والهَمَّ بالذنب، وإصابة الذنب^(١).

- قوله (تذكروا) يعني: بادروا وسارعوا إلى استحضار ما يمنعهم من الاستمرار في الاستجابة لذلك الطائف، ولم يبيِّن ما الذي تذكروه فمنعهم؛ من أجل التعميم، ليشمل: وعد الله ووعيدَه، وثوابه وعقابه، والجنة والنار.

- أمَّا استعمال (إذا) الفجائية في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ فللدلالة على حصول مضمون جملتها دفعةً بلا إبطاء، أي: تذكروا تذكُّر ذوي عزمٍ فلم تترتَّب نفوسهم أن تبين لها الحقُّ الصارِف عن العمل بالخواطر الشيطانية^(٢). فكانَّهم كانوا في ظلامٍ دامس فأضاء التذكُّر لهم طريق الحقِّ ليمضوا فيه.

أحبَّتي الكرام، فلنحرص على أن نكونَ من المتَّقين، ولنحدَّر من وسوسة الشياطين، فإذا ما حصلت الوسوسةُ فلنسارع إلى تذكُّر الحقِّ المبيِّن، لنستقيم على الطَّريق القويم.

(١) تفسير ابن كثير ٥٣٤/٣ بتصرُّف.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤٠٥/٨.

عاقبة الشقاق والتنازع^(١)

﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾

المتأمل في قول الحق سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] يدرك أن هذه الآية العظيمة أصل في بيان أهمية توحيد الكلمة، والتحذير من الفرقة، وبيان خطرهما، والسبيل إلى علاجها، وفيها عدة وقفات:

الوقف الأول: إن أعظم أسباب اجتناب التنازع هو طاعة الله ورسوله، دل عليه المناسبة في العطف، حيث أمر سبحانه بطاعة الله ورسوله، وعطف عليه بالتثني عن التنازع، وفي ذلك بيان لأثر الطاعة في منع التنازع.

الوقف الثانية: إن التنازع مؤذن بالفشل السريع، حيث جاء بفاء السببية العاطفة الدالة على الترتيب والتعقيب: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا﴾، فليس ثم أمد بين التنازع والفشل، بل هو النتيجة الحتمية المباشرة لكل متنازعين.

الوقف الثالثة: جاء التعبير القرآني دقيقاً باختيار كلمة (تنازع)؛ لأنها تعني الاختلاف المفضي إلى تفرق القلوب قبل الأجساد. أما الاختلاف الطبيعي فقد يكون ظاهرة صحية لإثراء موضوع النقاش والخلاف، ما دام منضبطاً بضوابط الشرع الحنيف، ولم يتجاوزها إلى الخصومة والشقاق والتنازع.

(١) كتبه: د. عبد المحسن بن زين المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والأمين العام لرابطة علماء المسلمين.

الْوَقْفَةُ الرَّابِعَةُ: أَرَادَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَذْهَبُ رِيْحُكُمْ﴾؛ أَي: قُوَّتُكُمْ، وَقِيلَ: هِيَ رِيْحٌ حَقِيقِيَّةٌ يَنْصُرُ اللَّهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ، وَيَجْرِمُهَا الْمُتَنَازِعِينَ مِنْهُمْ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمَعْنَى: فِي التَّنَازَعِ ذَهَابُ قُوَّتِكُمُ الْحَسِيَّةِ وَقُوَّتِكُمُ الْمَعْنَوِيَّةِ؛ بِفَقْدِكُمْ الْهَيْبَةَ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمْ، وَفَقْدِكُمْ تَأْيِيدَ اللَّهِ وَنَصْرَهُ، فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ مَهْزُومِينَ.

الْوَقْفَةُ الْخَامِسَةُ: بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ الْحِصْلَةَ الْجَامِعَةَ الَّتِي تُعِينُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَعَلَى اجْتِنَابِ التَّنَازَعِ، وَهِيَ (الصَّبْرُ). فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالصَّبْرَ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَمِنْهَا التَّنَازَعُ، وَالصَّبْرَ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُؤَلَّةِ مِنَ الْجِرَاحَاتِ الَّتِي تَحْضُلُ فِي الْمَعَارِكِ وَنَحْوِهَا؛ كُلُّ ذَلِكَ مُوَطَّئٌ لِلنَّصْرِ وَمُهَيِّئٌ لِلتَّمَكِينِ؛ لِأَنَّهُ السَّبِيلُ إِلَى تَأْيِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْفَوْزِ بِمَعِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ سُبْحَانَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ فَهُوَ مَعَهُمْ تَأْيِيدًا وَحِفْظًا وَنَصْرًا.

نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الصَّبْرَ عَلَى مَا يَجِبُ، وَأَخْرَجَنَا أَمَّا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الفرحة الحقيقية^(١)

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

يرسّم الله تعالى لعباده في قوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ هو خير مما يجمعون ﴿ [يونس: ٥٨] المنهاج الصحيح للفرح، وذلك أنّ الناس اختلفت أسباب الفرحة لديهم، وتباينت مظاهره عندهم؛ أمّا البعيدون عن الهدى فيفرحون بالمعاصي ولذات الجسد، وعرض الحياة الدنيا الفاني، فيظهر عليهم الكبر والبطر، والصّدود عن الحقّ، ويؤول بهم ذلك إلى الحسرة والندم. وأمّا أهل الهدى فلا يفرحون بما فرح به أولئك، ولكنهم يفرحون بفضل الله وبرحمته؛ ليقينهم أنّ ذلك يقربهم إلى الله، ويأتيهم نفعه في دنياهم وأخراهم؛ ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فما فضل الله ورحمته اللذان دعّت الآية إلى الفرحة بهما دون سواهما؟

فضل الله ورحمته يشملان: أسباب الثواب ونتائجها؛ من نحو: معرفة الله والإسلام والقرآن، واتباع هدي النبوة، والتوفيق إلى العلم النافع والعمل الصالح، والفوز بجنة الله ورضوانه. قال الشوكاني: «المراد بالفضل من الله سبحانه: هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يُحيط به الحصر، والرحمة: رحمته لهم.. والأولى: حمل الفضل والرحمة على العموم»^(٢).

(١) إعداد اللجنة العلميّة.

(٢) فتح القدير ٦٥٦/٢.

إخواني الفضلاء، إذا تدبّرتُم هذه الأشياء التي دعت الآية إلى الفرح بها ستجدون أنها معارفٌ روحيةٌ، ولذاتٌ معنويةٌ، وليست لذاتٍ حسيّةً جسديّةً، ففي ذلك إشارةٌ إلى أنّ فرح الروح أعظمُ من فرح الجسد، وأنَّ سرورها خالصٌ متّصل. أمّا أفراحُ الجسد فإنها مشوبةٌ بالأكدار في أوّلها، وفي أثنائها، وفي نهايتها.

وكم هو الفرقُ بين مَنْ يفرح بالله وبما يقرب إليه، ومَنْ يفرح بغيره! فمَنْ فرح بالله «فقد فرح بأعظم مَفْرُوحٍ به، ومَنْ فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرحَ في غير موضعه. فإذا استقرَّ في القلب، وتمكَّن فيه العلمُ بكفايته لعبده، ورحمته له، وجلمه عنده، وبرّه به، وإحسانه إليه على الدوام؛ أوجب له الفرحَ والسرورَ أعظمَ من فرح كلِّ محبٍّ بكلِّ محبوبٍ سواه، فلا يزال مترقيًا في درجات العلوِّ والارتفاع بحسب رقيّه في هذه المعارف»^(١).

فلتجعل سرورك أيها المسلم بالله وثوابه، ولا تصرفه إلى ما يجمع الناس من حطام الدنيا؛ فما عند الله أبقى؛ ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الرَّحُف: ٣٢].

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٦/ ٤٩.

سَنَّةُ دَوَامِ الْأُمَّمِ^(١)

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾

يخبر الله تعالى عن سنَّته في الأمم قديمها وحديثها؛ من أنه لا يهلك القرى بظلم يقع فيها، وأهلها مصلحون؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

فإذا كان أهل القرى قائمين بالقسط؛ لا يبخسون الحقوق كقوم شعيب، ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون في ناديم المنكر كقوم لوط، ولا يبیطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود، ولا يذلون لمتكبر جبار يستعبد الضعفاء كقوم فرعون، فقد ضمنوا السلامة في الدنيا ولو كانوا مشركين. أمَّا الظلم المؤذن بالدمار والهلاك فهو الجمع بين الشرك والإفساد في الأعمال والأحكام^(٢).

أجل، إنَّ الأمم لتبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم، وإنَّ دولة الظلم لتزول وإن كانت مسلمة، ودولة العدل تدوم وإن كانت كافرة^(٣).

والأمة التي يقع فيها الفساد فينهض لدفعه أهل الحق والعدل فيها هي أمة ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. أمَّا الأمة التي يظلم فيها الظالمون،

(١) إعداد اللجنة العلميَّة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١١٤/٩، وفتح القدير، للشوكاني ٦٠٥/٢، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ١٥٩/١٢.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٤٥/٢٨، ١٤٦.

ويُفسد فيها اسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستند ولكنّه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإنّ سنّة الله تحقّق عليها بالهلاك الدّمار^(١).

وهنا يبرز دور الدعاة إلى الله الذين استجابوا لأمره حينما قال: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، عمران: ١٠٤؛ فنهضوا بعزم وتصميم لإقرار ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الظلم والبغي والفساد، إنّ هؤلاء هم صمام الأمان للأمم والشعوب أن يبيّهم عذاب الله، فأعظم به من دور وأثر، وأعظم بهم مكانة عند الله عزّ و-.

ولا يخفى، الآية تدلّ على أنّ إهلاك المصلحين ظلّم؛ وحاشاه سبحانه وتعالى أن يظلم أحدًا وهو المنزه عن كلّ نقص، وهو القائل على لسان نبيّه ﷺ: «يا عبادي إنّى يمّت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا»^(٢).

وبقي أن نتأمّل معًا ما اختتمت به الآية، فقد قال عزّ من قائل: ﴿وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ﴾، ولم يقل (صالحون)؛ لأنّ الصّلاح المنزوي بعيدًا عن واقع المجتمع، لا يُبالي بهزيمة الخير وأهله، وليس له أثر حميد!

فاجمع يا أخي بين الصّلاح والإصلاح، والرّشد والإرشاد؛ تكن من المفلحين.

(١) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب ٤/ ١٩٣٣.

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

الكلمة الطيبة (١)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾

لو تدبّرنا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] لوجدناه قد ورد في صورة مثل ضربه الله تعالى للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإيمان والتوحيد: (لا إله إلا الله). وهي كذلك كل كلمة خيرة حسنة، تقود إلى الحق وتدل عليه.

وقد بدأت الآية بهذا الاستفهام الذي يدعو إلى التدبّر والتأمّل: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: تدبّر لترى شأن الكلمة الطيبة، وعظيم مكانتها، وهي مكانة وضّحها هذا التشبيه البليغ البين، الذي أحال على ما هو محسوس مشاهد يراه كل إنسان ويعرفه.

شبه القرآن الكريم الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وقيل: إنها النخلة، ولكنها ليست شجرة عادية كسائر الشجر الطيب، بل هي شجرة فريدة؛ ضخمة عملاقة، جذورها عميقة راسخة في باطن الأرض، وأغصانها باسقة ممتدة إلى عنان السماء، وهي دائمة الخير والعطاء، لا ينقطع ثمرها، ولا ينتهي جناها في كل حين.

وفي هذا المثل دلالات كثيرة ينبغي على قارئ القرآن أن يتدبّر بها، منها:

(١) كتبه: أ.د. وليد بن إبراهيم القصاب أستاذ الدراسات العليا في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- إنَّ كلمة الإيمان عندما ترسُخ في قلب المؤمن يتفرَّع عنها الكثير من العمل الصَّالح، والخلق الكريم، والكلام النافع القويم. وذلك كلُّه ممَّا يُكتب له به الخير الكثير، والأجر الجزيل؛ إذ يصعد إلى السماء، ويحظى برضا الله، ويظلُّ صاحبه ينال به الثواب في حياته وبعد مماته.

- وفي تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة تنبيهٌ على ضرورة المحافظة عليها، والدعوة إليها، والاهتمام بشأنها ورعايتها، أو ليس من يملك شجرةً عظيمة كهذه الشجرة لا يفتأ يسقيها ويشدُّبها، ويحوظها بكلِّ رعاية واهتمام حتى يبقى خيرها دائماً؟

وقد جاءت هذه الآية منسجمةً مع الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيُّونَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] فهؤلاء المؤمنون الصالحون هم أصحابُ الكلمة الطيبة، وما نالوه من نعيمٍ ما هو إلا ثمرةٌ من ثمراتها.

كما جاءت الآية التي بعدها متناسبةً معها؛ فهي دعوةٌ صريحة إلى التذكُّر والتدبُّر في شأن هذه الكلمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] أي إنَّ هذا المثل الذي ضربها هنا - وكلُّ مثل في القرآن - هو عبرةٌ وموعظةٌ وتوضيح؛ ليتذكَّر الناس ويتدبَّروا.

وقد توضَّحت عظمة هذه الكلمة الطيبة أكثر، وتعمَّقت دلالتها بمقارنتها بنقيضتها؛ وهي الكلمة الخبيثة، إذ شبَّهت بالشجرة الخبيثة، وإذا كانت هذه الخبيثة ينبغي اجتثاثها من الجذور حتى لا يبقى لها أثر؛ فإنَّ المقابل لها، وهو (الكلمة الطيبة) هو الذي ينبغي أن يبقى ويرعى ويُسقى.

طُوبَى لِلْمُحْسِنِينَ! (١)

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

إنَّ حياتنا -أيها الإخوة الفضلاء- تعجُّ بالمشكلات، وتحيط بها المنغصات والمعضلات، وإننا معشر الخلق مصحوبون بالضعف والعجز، والفقر والجهل، ولا مُنجي من هذه الأحوال إلا عونُ الله تعالى لعباده.

وقد بيَّن سبحانه لنا منهاج السعادة، ومعراج الحياة الطيبة التي يرجوها كلُّ عاقل في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وفي هذا النصُّ البديع خبرٌ حقٌّ من عند الله بتفضُّله على عباده المتقين المحسنين بمعينته الخاصَّة التي تعني: التأييد والنصر والتوفيق، وما أحوَجنا إليها!

ومن تدبَّر هذه الآية وجد من هداياتها:

أنها ابتدأت بحرف التوكيد (إِنَّ)، وخُتمت بجملة خبرها اسمٌ (محسنون)، والاسم يدلُّ على الثبوت، ومعنى ذلك: أنَّ وعد الله حقٌّ لا بدَّ من وقوعه إذا تحقَّق شرطه، وأنَّ الإحسان الذي ينال صاحبه به معيَّة الله لا بدَّ أن يكون صفةً راسخة فيه.

ومن هداياتها: استعمالُ الفعل (اتَّقُوا) دون تصريحٍ بذكر المفعول؛ ليدلَّ على عموم التقوى لكلِّ ما يُخشى، فينبغي أن يتَّقِيَ المسلم ربَّه، ويتَّقِيَ النارَ،

(١) كتبه: أ. عبد الله بن عبده العواضي، باحث في العلوم الشرعيَّة.

ويَتَّقِي المعاصي. وكذلك قوله: (محسنون) ذكر من غير متعلِّق؛ ليفيد العموم في فعل الإحسان، فالمتَّقون محسنون في عبادة الله، وإلى عباد الله، محسنون في أقوالهم وأفعالهم، محسنون في حال يُسرهم وعُسْرهم، وفي هذا حثٌّ على سلوك طريق الإحسان مع الخلق والخالق في كلِّ حين.

ومن هداياتها: أنها جمعت في حثِّها على التقوى والإحسان بين حقِّ الله الخالق وحقِّ العبد المخلوق، وتمامُ الإيمان يدعو إلى القيام بالحقين كليهما على خير وجه.

إخواني وأحبابي، ما أجمل أن نَعْمُر حياتنا بالاستقامة على شرع الله؛ بلزوم أوامره، واجتناب نواهيه، وهذه هي عينُ التقوى. مع إحسان عبادته سبحانه على النحو الذي يحبُّ ويرضى، وبذل يد الإحسان القوليِّ والعمليِّ إلى الخلق جميعًا. فإن فعلنا ذلك نلنا معيَّة الله الخاصَّة لنا، ألا وإنَّ من أعظم معيَّة الله لعبده: معيَّة الهداية، والحماية من الغواية.

ولنضع نُصبَ أعيننا أنَّ حَظَّ المؤمن من معيَّة الله على قدر تقواه وإحسانه، ومن نال معيَّة الله فقد أدَّرع بدرع حصينة. وقد ورد عن بعض السلف أنه كتب إلى أخ له: «أما بعد، فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟»^(١).

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ص ١٨٨.

عِفَّةُ اللِّسَانِ^(١)

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

يتفاوت الناس في تعاملهم مع الآخرين؛ فمنهم من تجده راقياً في كل حين، حليماً رزيناً عفيفاً اللسان، ومهما تعرّض لصعوبات أو مضايقات لا تسمع منه إلا ما يسرُّ. ومنهم من تجده غليظاً في تعامله، سليطاً في لسانه. وثمَّ قسمٌ ثالثٌ لأناسٍ خلطوا بين القول الحسن والقول القبيح، وعسى الله أن يتوب علينا وعليهم.

ولأنَّ الله سبحانه خلق الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسنُ عملاً، وجعل هذه الحياة ميداناً فسيحاً للتنافس في تحسين العمل وتجويده، ولأنَّ القرآن الكريم يهدينا للتي هي أقوم، وإرشاداته تأخذ بنواصينا نحو خير الأعمال وأعد لها = جاء التنبيه إلى الطريقة المثلى في التعامل مع الناس والحديث إليهم في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

أمّرت الآية بما يفوت على الشيطان فرصة إيقاع العداوة بين الناس، والفرح بذلك، بأن يقولوا التي هي أحسن؛ حفاظاً على رابطة الأخوة أن تشوبها شائبة. وهذا يعني أن يقولوا أجود الكلام وأفضله، وإذا دار الكلام

(١) كتبه: د. محمّد بن مصطفى السيّد، عضو الهيئة العالميّة لتدبر القرآن.

بين قولٍ حسنٍ وقولٍ أحسنَ منه، فعليه أن يقولَ الأحسن. «وهذا أمرٌ بكلِّ كلامٍ يقربُ إلى الله... وكلامٍ حسنٍ لطيفٍ مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم... والقولُ الحسنُ داعٍ لكلِّ خلقٍ جميلٍ وعملٍ صالحٍ، فإنَّ مَنْ ملكَ لسانه ملكَ جميعِ أمره»^(١).

ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فقد أمرنا بمخاطبة الناس كلِّ الناس بالحسنى، والبعد عن كلِّ ما يُسيء إليهم، بل إنَّ الله سبحانه وصف عباده المؤمنين في الجنَّة بأنهم: ﴿وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، فقرنَ سبحانه بين الهداية إلى الطيب من القول والهداية إلى الطريق المستقيم.

وهذا ما ينبغي أن يكونَ عليه المسلمُ مع المخالفين قبل الموافقين؛ يعرضُ حجَّته بعيدًا عن الإساءة والتجريح، وذلك أدعى إلى التأثير في نفوسهم، وقبول كلامه وحجَّته. وقد رُوِيَ عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قوله: لولا ثلاثٌ ما أحببتُ البقاء، وذكر منها: ومجالسةُ أقوامٍ ينتقون أطايبَ الكلام كما ينتقون أطايبَ الثمر.

نسأل الله أن يهدينا إلى الطيب من القول والفعل، وأن يهدينا إلى صراطه المستقيم.

تفخيم شأن الصلاة^(١)

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهله من الليل للصلاة، ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] فماذا في هذه الآية؟

إنه أمر صريح من الله لخير خلقه، وإمام رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وللمسلمين من بعده، بتعاهد الصلاة وتعظيم شأنها.

وفي الآية ذكر للصلاة والرزق والتقوى، وهي أمور تتكامل ولا تتنافر. ذكرت (الصلاة) بأسلوب يدل على عظم مكانتها، فصيغة الأمر (وأمر) تُشعر بأن الصلاة من أجل المهمات، وأفخم الواجبات التي ينبغي أن يُعنى بها المرئي. وقوله سبحانه: (أهلك) فيه إظهار لأهمية قيام الجميع بهذه الشعيرة؛ لأن التعبير بالأهل يشمل الزوجة والأولاد ذكورا وإناثا، وكل من تحت يدك. ثم ذكر المأمور به وهو (الصلاة)، وأرشد معها إلى أمر آخر وهو ضرورة الاصطبار عليها، أي: فعلا وأمرا، وعبر بالاصطبار دهن الصبر؛ لأن الصلاة تحتاج إلى صبر مضاعف وطويل، فهي تكليف متكرر، وقد تتعارض أحيانا مع رغبات النفس ولذاتها.

(١) كتبه: أ. د. عويص بن حمود العطوي، أستاذ البلاغة بجامعة تبوك.

ثم ذُكِرَ (الرِّزْقُ) في قوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾، فما علاقة الرزق بالصلاة؟ ولم ذُكِرَ بعدها؟

إنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّ طلب الرزق والسعي في حوائج الدنيا قد يُلهي عن الصلاة، وهذا ولا شكَّ ليس نهياً عن طلب الرزق، بل فيه إلماحةٌ إلى أنَّ الرزق المقدر لن يضيع، فلا تُضِعْ صلاتك من أجله، بل تيقن أنَّ صلاتك من أسباب رزقك. وقد قيل لأحد الصَّالحين: ارتفعت الأسعار، فقال: لا أبالي، أعبُدُ ربِّي كما أمرني، وهو يرزُقني كما وعدني.

ولتأكيد هذا المعنى ذُكِرَ الرزقُ مرَّتين ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، وفي قوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ضمانٌ بالرزق، فالله جلَّ جلاله بما له من العظمة تكفل لك بذلك، فلا يشغلك طلبه عن الصلاة، وقد قيل: لا تنشغل بالنعمة عن المنعم.

وختمت الآية بذكر (التَّقْوَى) في قوله: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ولا عجب، فالتَّقْوَى سببٌ للرزق، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، والصلاة من أعظم أسباب التقوى.

ربِّ اجعلنا وذراريانا من المتقين الذين يُقيمون الصلاة ويعظّمون شأنها، وتقبّل دعاءنا يا مجيب الدعاء.

فلنعظم ما عظم الله (١)

﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾

إنَّ الله ﷻ جعل لهذا الدِّين شعائر تدلُّ عليه، والشَّعائرُ هي: معالمُ هذا الدِّين وعلاماته الظاهرة. وقد أمر ﷻ بتعظيم هذه الشَّعائر في قوله: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، سواءً كانت شعائرَ مكانيةٍ أو زمانيةٍ.

ومن الشَّعائر المكانية: المساجدُ الثلاثة؛ في مكَّة والمدينة وبيت المقدس، وكذلك كلُّ مسجد يُذكر فيه الله ﷻ، ومنها أيضًا: الصِّفا والمروة ومُزدلفة وميِّ. ومن الشَّعائر الزمانية: الأشهر الحُرْم (ذو القعدة، وذو الحجَّة، والمحرم، ورجب)، وشهر رمضان، ويوم الجمعة.

وتعظيم الشَّعائر يكون بإجلالها، والقيام بحقِّها، وهذا التعظيمُ لشعائر الله ﷻ دليلٌ على صحَّة إيمان العبد وتقواه، وحقيقة معرفته بخالقه ﷻ؛ لأنَّ تعظيمها من تعظيم الله وإجلاله فهو الذي أمر بتعظيمها.

وأضاف الله ﷻ التقوى إلى القلوب خاصَّة؛ لأنَّ تعظيم الشَّعائر اعتقادٌ قلبيٌّ ينشأ عنه العمل، ولأنَّ القلب هو محلُّ نظر الله إليك، ومحلُّ قياس تعظيمك

(١) إعداد اللجنة العلمية.

لشعائر الله. والله ﷻ لا يريد أن يُخضع قلوبنا وأجسادنا فحسب، وإنما يريد أن يُخضع قلوبنا أوَّلاً، فما أحرانا أن نعظّم شعائره بحُبِّ وصدق وإخلاص.

والناس تجاه شعائر الله صنفان:

- صِنْفٌ يُظْهِرُ التَّقْوَى مِنْ نَفْسِهِ، وَقَلْبُهُ خَالٍ مِنْهَا، فَلِهَذَا لَا تَجِدُهُ مُجِدِّدًا فِي الطَّاعَاتِ، بَلْ مَتَوَانِيًا فِي أَدَاءِ الْقُرْبَاتِ، عَلَى مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وذلك هو المنافق.

- وَصِنْفٌ تَمَكَّنَتْ التَّقْوَى مِنْ قَلْبِهِ، فَتَجَدُّهُ يَنْشَطُ فِي أَدَاءِ الطَّاعَاتِ، وَيَسَارِعُ دَوْمًا فِي الْخَيْرَاتِ وَالصَّالِحَاتِ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا. وَقَدْ عَبَّرَ سَيِّدُ الْخَلْقِ ﷺ عَنْ هَذَا التَّعْظِيمِ لِلْعِبَادَةِ وَالْحُبِّ لِلطَّاعَةِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: «وَجُعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

نسأل الله أن يجعلنا ممن تمكنت التقوى في قلوبهم، فأخلصوا لله بتعظيم شعائره كما أمر. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السَّعَادَةُ فِي اتِّبَاعِ السَّنَةِ^(١)

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾

يا له من تحذيرٍ وتهديدٍ من الله لعباده! في قوله سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

إنه تحذيرٌ ليس لمن خالف جميع أمر رسول الله ﷺ، بل لمن خالف أمرًا واحدًا من أوامره. وأمره ﷺ هو: منهاجُه وسنَّته وشريعته، التي أرسله الله عزَّ وجلَّ بها، فبلغها على أكمل وجه وأتمه، جزاه الله عنَّا خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمته. ألا فليحذر من خالف أمر رسول ﷺ باطنًا أو ظاهرًا، من أن يُعاقب في الدنيا فيفتن قلبه، فيستمرى المعاصي ويمجد لها لذَّةً وحلاوة، فيُحجب عن نور الله حتى يصل إلى الكفر المحبط للعمل. أو يُعاقب بالفضائح والرزايا، ثم يصيبه في الآخرة عذابٌ أليم.

وليحذر المخالفون عن أمره ﷺ أن تصيبهم فتنةٌ تضرب فيها المقاييس لديهم، وتختل الموازين، وينتكس النظام، فلا يميزون بين حقٍّ وباطل، ولا بين طيبٍ وخبيث، فتفسد أمور حياتهم، ثم يبوءون بالخسران يوم الحساب.

(١) كتبه: أ. عبد الرحمن بن عادل المشد، المشرف على دورة الإمام ابن جرير لتعلم التفسير، والحاصل على جائزة التميز البحثي في الدراسات القرآنية عام ١٤٣٧هـ، برسالة الماجستير: «المفسرون من الصحابة ﷺ، جمعًا ودراسةً وصفيةً».

إِنَّ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ فِي مِتَابَعَةِ السَّنَّةِ، وَشَقَاوَةَ الْمُنْزِلِينَ فِي مَخَالِفَةِ السَّنَّةِ، وَمَنْ
أَيْسَرِ مَا يَصِيبُ مَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ ﷺ حَرْمَانُ التَّوْفِيقِ، وَتَعَدُّرُ الْمِتَابَعَةِ، وَسَقُوطُ
حِشْمَةِ الدَّارَيْنِ عَن قَلْبِهِ.

وَالوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَّبِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ، وَيَنْتَهِيَ عَن كُلِّ
مَا نَهَى عَنهُ وَزَجَرَ. وَالْمُؤْمِنُ الْحَقُّ يَزِنُ أَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا
وَافَقَ ذَلِكَ قُبُلًا، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مُرَدُّودٌ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ
ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١). وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ، عَن
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ
مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّاتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ
يُحْزَنُونَ وَيَغْلِبُنَهُ، وَيَتَّقَحَمْنَ فِيهَا. قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ، أَنَا أَخَذْتُ بِحُجْرَتِكُمْ
عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»^(٢).

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وَارزُقْنَا اللَّهُمَّ حُسْنَ
الِاتِّبَاعِ، وَثَبِّتْنَا عَلَى الْحَقِّ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ.

(١) مِثْفَق عَلَيْهِ، الْبُخَارِيُّ (٢٦٩٧)، وَمُسْلِمٌ (١٧١٨).

(٢) مِثْفَق عَلَيْهِ، الْبُخَارِيُّ (٣٤٢٦)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٨٤).

طلبُ المعالي^(١)

﴿وَأَجْعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

إنَّ لباسَ التقوى خيرُ لباسٍ، وزادَ التقوى خيرُ زادٍ، وما أسَّسَ على التقوى
علا وارتفعَ، وما ليسَ كذلك هوى ووقعَ. قال اللهُ تعالى: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا
عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَيِّرِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال:
﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى
التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٨، ١٠٩]، وقال:
﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والمُتَّقُونَ عندَ اللهِ درجاتٌ، مُصدِّقُ قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله:
﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾ (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

(١) كُتِبَ: أ.د. ناصر بن سليمان العَمَر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبير القرآن الكريم،
والمشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم.

وقد كان من دعاء الربانيين من عباد الرحمن الذين نوه الله بهم وأشاد بفضلهم، قولهم: ﴿وَجَعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. وقد أثنى ﷺ عليهم بجملة صفاتٍ فاضلة ختمها بذكر سؤالهم هذا، ثم بين جزاءهم فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦]، وهذا يدلُّك على شرف سؤالهم.

وتأمل، تجدهم لم يطلبوا أن يكونوا من المتقين فحسب، ولكنهم سألوا ربهم أن يجعلهم أئمة في الدين، وللمتقين أسوة وقدوة. تلك هي النفوس الكبيرة لا ترضى إلا بالمعالي، ولا تسأل من المطالب إلا أسماها وأعلاها.

وتجدهم قد سألوا الفضل من أهله؛ علموا أن ما يرغبون فيه لا سبيل إليه إلا بتيسيره سبحانه، فتوجهوا إليه وحده بالسؤال والدعاء؛ أن يجعلهم بحيث يقتدى بهم في الدين، وذلك إنما يكون بإفاضة العلم النافع، والتوفيق إلى العمل الصالح، كما قال ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

والإمامة في الدين، لا تُنال إلا بالصبر واليقين.

أمَّا اليقين فهو فرع العلم وإمعان النظر في الآيات. وأمَّا الصبر فهو عماد العمل، لا يقوم إلا به، ولا يسلم صاحبه من المعاييب والمصائب دونه. وقفتني الله وإياكم للعلم والعمل، والصبر واليقين، وجعلنا من أئمة المتقين. والحمد لله رب العالمين.

الصَّلَاةُ مِيزَانٌ (١)

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

يقول الله تعالى في مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد فيها أمرًا بعبادةٍ مصحوبًا بتعليل يتضمَّن ثمرةً عاجلة من ثمرات هذه العبادة.

أَمَّا الْأَمْرُ فَهُوَ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ، وَأَعْظَمُ وَاجِبٍ عَمَلِيٍّ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَهَا، وَلَا نَوْرَ فِي الْحَيَاةِ لِمَنْ ضَيَّعَهَا، فَإِذَا صَلَّحَتْ صَلَّحَ سَائِرُ عَمَلِ الْعَبْدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ.

وَتَأَمَّلْ أَخِي الْحَبِيبُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ﴾ فَقَدْ «عَبَّرَ عَنِ الْأَدَاءِ بِالْإِقَامَةِ؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الصَّلَاةَ عِمَادُ الدِّينِ، وَفِي «الْمُفْرَدَاتِ» إِقَامَةُ الشَّيْءِ: تَوْفِيئُهُ حَقَّهُ، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ: تَوْفِيئُ شَرَائِطِهَا، لَا الْإِتْيَانُ بِهَيْئَتِهَا فَقَطْ» (٢). وَقِيلَ: «عَبَّرَ عَنِ الْأَدَاءِ بِالْإِقَامَةِ؛ لِأَنَّ الْقِيَامَ بَعْضُ أَرْكَانِهَا، كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِالْقُنُوتِ، وَالْقُنُوتُ الْقِيَامُ، وَبِالرُّكُوعِ وَبِالسُّجُودِ» (٣).

(١) إعداد اللجنة العلميَّة.

(٢) روح البيان، للألوسي ٤٧/٧.

(٣) الكشَّاف، للزمخشري ٨١/١.

وأما التعليلُ لفعل العبادة؛ فإنَّ المتبَّعَ لنصوص العبادات المأمور بها يجدها على قسمين: قسمٌ تعبُّديٌّ غير معلَّل، وقسمٌ تعبُّديٌّ معلَّل. فمن القسم الثاني عبادةُ الصلاة؛ فقد ذكر الله تعالى في كتابه، وذكر رسوله ﷺ في سنَّته بعضَ العلل المتضمَّنة بيان ثمرات الصلاة العاجلة والآجلة، فمن ذلك ما في هذه الآية حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وإنما كانت الصلاة كذلك لما فيها من الأقوال والأفعال التي إذا تفكَّر فيها الإنسان وأحضر قلبه معها، وأخلص لله فيها، فإنها ستحبسه عن طرُق العِصيان، وتسوقه إلى صراط الرحيم الرحمان. وفي الحديث: قيل: يا رسول الله، إنَّ فلانًا يصلي الليل كلَّه، فإذا أصبح سرق! قال: «سينهاه ما تقول»^(١). ومعناه: لو استمرَّ هذا في صلاته، وتأمَّل فيها وفيما تدعو إليه فإنَّ ذلك سيُبعدة عن السرقة^(٢).

فاختبر نفسك أيها المسلم، وانظر ما نصيبك من الصلاة، وما تمثَّل الصلاةُ لك في حياتك؟

وهل أنت من أهلها الذين يقومون بها كما جاءت بها الشريعة؛ وفاءً بشروطها، وعددها، وصفتها، وزمانها، ومكانها الذي أذن الله بأن تكونَ فيه؟

وهل صلاتك تنهاك عن المعاصي، وتُسارع بك إلى الطاعات؟

فإن كان حالك معها على ما يحبُّ الله فأخلص واستمرَّ، وإن كان على

خلاف ذلك فراجع صلاتك؛ وصلِّ فإنَّك لم تصلِّ!

(١) صحيح ابن حبان (٢٥٦٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٠/ ١٧٨-١٧٩، وأيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري

الإمامة في الدين^(١)

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾

يبين الله سبحانه للمؤمنين في كلِّ عصرٍ وفي كلِّ جيلٍ طريقَ الإمامة في الدين، بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ألا وهو: الصبر واليقين.

والمراد بالأمر في الآية ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: الوحي والشريعة؛ لأنه أمرٌ بها، ويشمل أيضًا الانتصابَ للإرشاد؛ فإنَّ الله أمر العلماء أن يبينوا الكتابَ ويرشدوا إليه، فإذا هُدى فإنما هُدى بأمره وبالعلم الذي أتاهم به أنبياءهم^(٢).



والآية تشير إلى ما منَّ الله به على بني إسرائيل؛ إذ جعلهم أئمةً، وما نالوا هذه الدرجة العالية إلا بالجدِّ في التعلُّم والتعليم، والدأب في الدعوة إلى الله، وبالصبر على الأذى في سبيله، مع كَفِّ جماح نفوسهم عن المعاصي، واسترسالها في الشهوات. وقد وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلمُ التامُّ الموجبُ للعمل. وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلَّموا تعلُّمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلَّتْها المفيدة لليقين.

(١) إعداد اللجنة العلميَّة.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢١/ ٢٣٧.

وفي الآية تحريضٌ للمؤمنين في كلِّ وقتٍ وحين؛ أن يصبروا كما صبر
المُختارون من بني إسرائيل، ويوقنوا كما أيقنوا؛ ليكونَ منهم أئمةٌ للمسلمين،
كما كان أولئك أئمةً لبني إسرائيل. وفيها تقريرٌ طريق الإمامة والقيادة، وهو
الصبر واليقين.

إنَّ الدعاة إلى الله تعالى لا تنجح دعوتهم، ويتمُّ لهم أمرهم، إلا بيقينهم
بالحقِّ الذي يدعون إليه، وبصيرتهم به، وصبرهم عليه؛ باحتمال المشاقِّ، وكفِّ
النفس عمَّا يُوهن العزمَ ويُضعف الإرادة. فَمَن كان بهذه المنزلة كان من الأئمة
الذين يهدون بأمره تعالى.

وقد كان الصحابة  أحقَّ وأولى بهذه المنزلة من أصحاب موسى، فهم
أكمل يقينًا، وأعظم صبرًا من جميع الأمم، فهم أولى بمنصب هذه الإمامة، وهذا
أمرٌ ثابت لا شكَّ فيه، بشهادة الله لهم وثنائه عليهم، وشهادة الرسول  لهم
بأنهم خيرُ القرون، وأنهم خيرُ الله وصفوته.

فأقبل يا أخي لتكونَ من أئمة المتقين، فالفرصة مواتية، وإنَّ الأزمات
والتكبات التي تمرُّ بها أممُّك تناديك؛ فلبَّ النداء وكن من المبادرين.

الأمّة المرحومة^(١)

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾

لَمَّا كَانَتْ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ أَكْمَلَ الْأُمَمَ عَقُولًا، وَأَرْقَّهَا قُلُوبًا، وَأَزَكَّهَا نَفُوسًا؛ اصْطَفَاهَا اللَّهُ تَعَالَى وَاصْطَفَى لَهَا دِينَ الْإِسْلَامِ، وَأَوْرَثَهَا الْكِتَابَ الْمَهِيمَنَ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمراد بوراثته الكتاب: وراثته علمه وعمله، بدراسة ألفاظه ومعرفة معانيه. وأبناء هذه الأمّة على ثلاثة أصناف؛ ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أي: بالمعاصي التي هي دون الكفر. ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ أي: مُقْتَصِرٌ عَلَى الْوَاجِبَاتِ، مُجْتَنِبٌ لِلْمَحْرَمَاتِ. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ أي: مُسَارِعٌ فِيهَا وَمُجْتَهِدٌ، وَهُوَ الْمُؤَدِّي لِلْفَرَائِضِ، الْمُكْتَمِرُ مِنَ التَّوَافِلِ، التَّارِكُ لِلْمَحْرَمَاتِ، الْمُتَحَرِّزُ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ. وَكُلُّ هَؤُلَاءِ قَدْ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَوِثَّةٍ كِتَابِهِ، وَإِنْ تَفَاوُتَتْ مَرَاتِبُهُمْ، وَتَمَيَّزَتْ أَحْوَالُهُمْ، وَلَكُلٌّ مِنْهُمْ قِسْطٌ مِنْ وَرَاثَتِهِ، حَتَّى الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ، فَإِنَّ مَا مَعَهُ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ، وَعِلْمِ الْإِسْلَامِ، وَأَعْمَالِ الْإِحْسَانِ، مِنْ وَرَاثَةِ الْكِتَابِ.

(١) إعداد اللجنة العلميّة.

وروي عن أبي عثمان التَّهْدِيّ قال: سمعتُ عمرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه قرأ على المنبر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سابقنا سابقٌ، ومُقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»^(١).

وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ راجعٌ إلى السابق بالخيرات؛ لئلا يغترَّ بعمله وجده، فهو ما سبق إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

ولا شكَّ أنَّ هذا الاصطفاء الذي خصَّ الله به هذه الأمة يوحى بضخامة التَّيْبَعَةِ الناشئة عنه، ألا وهي الدعوة إلى هذا الدِّين بالحكمة والموعظة الحسنة، وتبليغ رسالة الله، كما قال سبحانه مادحًا هذا الصَّنْفَ من الناس: ﴿الَّذِينَ يَبْلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

اللَّهُمَّ اجعلنا ممن يخشونك حقَّ الخشية، ووفَّقنا لأن نكون من السابقين بالخيرات بإذنك، واحشرنا مع صفوة خلقك، من الأنبياء والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

(١) أخرجه ابن كثير في «مسند الفاروق» ٢/ ٦٠٣، وهو ضعيف.

أهل الغلبة والتمكين^(١)

﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

وعد الله عباده الصالحين المتقين، بالغلبة والتمكين، وبالعزة والنصر المبين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]. وإنَّ هذا الوعد لسنة من سنن الله الكونية، سنة ماضية كما تمضي الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبت الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء وكيف يشاء.

وهي إشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده؛ أن له الغلبة، وإن أُدبِلَ عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى^(٢). فقد يُهزم جنودُ الله في معركةٍ من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء؛ لأنَّ الله يُعدُّهم للنصر في معركة أكبر، ولأنَّ الله يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذٍ ثماره في مجالٍ أوسع، وفي خطٍّ أطول، وفي أثرٍ أدوم^(٣).

(١) كتبه: د. توفيق بن علي زبادي، الباحث في مركز تفسير للدراسات القرآنية.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي ص ٢٣٦.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٣٠٠٢.

والغلبة قد تكون بقوة الحجّة، وقد تكون بالدّولة والاستيلاء، وقد تكون بالدّوام والثبات، فالمؤمن وإن صار مغلوبًا في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب^(١). وتكون الغلبة أيضًا بعلوّ المؤمنين على عدوّهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٤].

والتاريخ يُثبت بأحداثه ووقائعه صدق وعد الله سبحانه، فلقد استقرّت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان، على الرُّغم من جميع العوائق، وعلى الرُّغم من تكذيب المكذّبين، وعلى الرُّغم من التنكيل بالدعاة والمصلحين.

ولقد اندثرت عقائد المشركين والكفّار، وتلاشت سطوتهم ودولتهم، وبقيت العقائد التي جاء بها الرُّسل تسيطر على قلوب الناس وعقولهم. وكلُّ المحاولات التي بُذلت لمحو العقائد الإلهية قد باءت بالإخفاق، وحقّت كلمة الله لعباده المرسلين؛ إنهم لهم المنصورون، وإنّ جُنْدَهُ لَهُمُ الْغَالِبُونَ.

ولا يخفى أنّ في الآية إشارةً إلى أنّ المؤمنين حقًا هم جندُ الله، وأنّ الله لن يتخلّى عن جُنْدِهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَيُدَافِعُونَ عَنِ دِينِهِ، وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ. وما أحرانا أن نكون منهم؛ لنفوزَ بنصره في الدنيا، وبجنتاته في الآخرة.

(١) تفسير الرازي ٢٦/٣٦٣.

الله خير حافظاً^(١)

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾

لم يفتأ اليهودُ والمنافقون يَكِيدون لنبيِّنا ﷺ، حاولوا قتله وإيذائه بالسَّحر، واستخدموا كلَّ الوسائل الظاهرة والخفيَّة لصدِّه عن دعوته، ولكنَّ الله نَجَّاه من كيدهم، ودفع عنه حقدَهم، وصرف عنه شرَّهم، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿ الزُّمَر: ٣٦.﴾

وفي وصف الرسول ﷺ بالعبوديَّة وإضافته إلى ضمير الجلالة معنًى عظيمٌ من تشريفه ﷺ، وبيانٌ أنَّ هذه الكفاية ليست متحقِّقةً لأعدائه. وفيه لفتةٌ مهمَّة، وإبرازٌ للشَّروط الذي يضمن الله به الكفاية والحماية لخلقه، ألا وهو تحقيقُ العبوديَّة الكاملة له سبحانه.

يقول الإمام ابنُ رجبٍ رحمه الله: «فَمَنْ قام بحقوق الله عليه؛ فَإِنَّ الله يتكفَّل له بالقيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، وَمَنْ أراد أن يتولَّى الله حفظه ورعايته في أموره كلِّها؛ فليُراعِ حقوقَ الله عليه، وَمَنْ أراد ألاَّ يصيبه ممَّا يكره؛ فلا يأتِ شيئاً ممَّا يكرهه الله. وكان بعضُ السَّلف يدور على المجالس ويقول: مَنْ أَحَبَّ أن تدومَ له العافية؛ فليَتَّقِ الله»^(٢).

(١) إعداد اللجنة العلميَّة.

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٢٧٠.

وفي قراءة أخرى صحيحة للآية: (أليس الله بكافٍ عباده)^(١)، بالجمع لا الأفراد؛ لتشمل جميع رسله وأنبيائه وعباده الصالحين.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، فإذا كان الله سبحانه معك فماذا تخشى، وممن تخاف؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليك بسوء؟ فلا تخش أيها النبي أحدًا لأنك في أمان الله سبحانه، كيف لا وقد حَقَّتْ العبوديَّة، وقمت بحَقِّها خير قيام؟ وهذا متحقِّقٌ أيضًا لكلِّ من قام بعبوديَّة الله سبحانه حقًّا وصدقًا.

ثم حُتْمَتِ الآيَةُ بقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، فهو سبحانه يعلم من يستحقُّ الضلالة فيضله، ويعلم من يستحقُّ الهدى فيهديه، فإذا قضى بقضائه فلا مبدل لحكمه.

اللَّهُمَّ اجعلنا من عبادك الصالحين، واهدنا واهد بنا يا أكرم الأكرمين، واكفنا شرَّ خلقك أجمعين.

(١) قرأ بها: حمزة والكسائي وأبو جعفرٍ وخلف. انظر: التسهيل لقراءات التنزيل، لمحمد فهد خاروف.

أجدى الأصحاب^(١)

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

تتجلى الدعوة الصادقة إلى اختيار الأصدقاء، واصطفاء الأخلاء في قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الرُّخْف: ٦٧]، فإنَّ الإنسان مُستأنسٌ بغيره، وصعبٌ عليه أن يعيش بلا صديقٍ يقاسمه مساره ومضاره، يتأثر به ويؤثر فيه.

فإن كان الأمر كذلك فلا بدَّ -أخي الحبيب- أن تختار الصديق الذي تربط معه حبال المودة في الرِّخاء والشدة؛ لتنتفع بهذه الصداقة في الدنيا والآخرة. وفي هذه الآية الكريمة ذكر الله تعالى صفةً من يصلح لهذه العلاقة الاجتماعية فقال: (المتقين)، فمن كان من أهل التقوى؛ عاملاً بأوامر الشرع، مجتنباً لنواهيه، فاشدّد يدك به؛ فإنه جوهرةٌ ثمينة، خصوصاً في زمن قلّة المتقين، وكثرة أصدقاء المصالح العاجلة.

إنَّ صديق التقوى -صدقاً لا دعوى- يذكرك إذا غفلت، ويعلمك إذا جهلت، ويُعينك إذا أطعت، ويعظك إذا عصيت. إذا رأيتَه ذكرتَ الله، وإن غبت عنه بقيَ لديك نسيمٌ خلاله العذبة يتضوّع في أفقك يدعوك إلى اقتفاء أثره، وانتهاج مستقيم سيره.

(١) إعداد اللجنة العلميّة.

أخي الغالي، جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن بعض أحوال القيامة، فذكرت من ذلك حال الأصحاب المتحائنين، فبيّنت أنّ الأصحاب على قسمين؛ الأوّل: مَنْ تنقلب صداقتهم في الآخرة إلى عداوة، تُورث القطيعة والكراهية، والمعاتبة وذهاب الانتفاع؛ لأنها قامت في الدنيا على معصية الله. والثاني: مَنْ بقيت شجرة مودّتهم قائمة؛ لأنها زُرعت في أرض التقوى، وسُقيت بماء العلم النافع، وحرست بالعمل الصالح، فأينعت ثمرتها دوام الصّلة، واشتداد عود المحبّة، وحصول النفع بالشفاعة.

قال الحسن البصريُّ: «استكثروا من الأصدقاء المؤمنين؛ فإنّ لهم شفاعَةً يوم القيامة»^(١).

فيا أيها المسلم، احذر صديق المعصية؛ فإنه وبأل في الدنيا، خسارٌ في الآخرة. واحرص على صديق التقوى؛ فإنه ينفَعك في الدنيا بتصحيح طريقك إلى الله، ففي الحديث: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ حَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُحَالِلُ»^(٢)، كما ينفَعك في الآخرة بشفاعة حسنة، قال ابن عباس: «الصّديق أكثر من الوالدين؛ ألا ترى أنّ الجهنميين لم يستغيثوا بالآباء ولا الأمّهات، وإنما قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾^(٣) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ» [الشعراء: ١٠١]»^(٤).

(١) اللُّبَابُ فِي عِلْمِ الْكِتَابِ، لابن عادل الدَّمَشَقِيِّ الحنبلي ١٥ / ٥٣.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٥)، والتِّرْمِذِيُّ (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة، مرفوعًا.

(٣) النكت والعيون، للماوردي ٤ / ١٢٤.

عماد التدبّر^(١)

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾

حَتَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى تَدَبُّرِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ، وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ التَّدَبُّرِ^(٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وإِنَّ التَّمَامِلَ فِي مَقْصِدِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَدَبُّرِ كِتَابِ اللَّهِ يَجِدُ أَنَّ لَهَا شُرُوطًا يَنْبَغِي لِلْمُتَدَبِّرِ أَنْ يَحْقُقَهَا؛ لِيَحْصَلَ بِهَا أَثَرُ التَّدَبُّرِ وَثَمَرَتِهِ.

وَبِالتَّمَامِلِ فِي كِتَابِ اللَّهِ يَظْهَرُ أَنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] إِشَارَةً إِلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ إِجْمَالًا، وَمِنْ أَهَمِّهَا وَأَبْرَزِهَا: كَوْنُ الْمُتَدَبِّرِ حَيًّا الْقَلْبَ.

وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ، وَقَدْ نَصَّ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ كَقَتَادَةَ، وَمُقَاتِلَ بِنِ سَلِيمَانَ، وَغَيْرِهِمَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقَلْبِ هُنَا: الْقَلْبُ الْحَيُّ^(٣). فَالرَّجُلُ الْحَيُّ الْقَلْبُ مُسْتَعِدٌّ، فَإِذَا تُلِّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ أَصْغَى بِسَمْعِهِ، وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمٍ مَا يَسْمَعُهُ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ الْمُتَلَوَّةِ وَالْمَشْهُودَةِ.

(١) كتبه: الشيخ عبد اللطيف بن عبد الله التويجيري، رئيس اللجنة العلمية في مركز تدبّر.

(٢) تفسير القرطبي ٤٤/١٨.

(٣) تفسير مقاتل ٤/١١٥، وتفسير الطبري ٢١/٤٦٢.

فإن كان القلب غائبًا أو مسافرًا في الأمانِ والشّهواتِ والخيالات؛ فإنه لا يحصل به الانتفاع^(١). ولذلك نجد القرآن الكريم قد أشار إلى أنّ أفعال القلوب مانع رئيس من التدبّر، فقال تعالى موجِّهًا المنافقين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

قال ابن القيم: «قوله: ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلّ القابل، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [٦٩] لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] أي حيّ القلب»^(٢).

ومن لوازم هذا الشرط - حياة القلب - أعمال القلب الأخرى: كالإيمان بالله، وإخلاص القصد، وصدق اليقين، والإنابة إلى الله، واستشعار عظمة القرآن. ومن لوازمه أيضًا تطهيره من أقفال التدبّر: كالشواغل، وأمراض القلب؛ من غلٍّ وحسدٍ ورياءٍ ونفاق.

إنّ المتدبّر إذا حقّق هذا الشرط وما يلزم منه من اللوازم، أصبح قلبه حيًّا شاهدًا طاهرًا، منتفعًا بآيات الله المتلوة والمشهودة، وأثر ذلك عظيم في قلبه. ولله درّ أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه حين قال: «لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله عزّ وجلّ»^(٣).

اللهمّ طهر قلوبنا، واغفر ذنوبنا، واجعلنا شاكرين ليعمك، مثنين بها عليك، يا ربّ العالمين.

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم ١/ ٤٤٢-٤٤٣.

(٢) الفوائد، لابن القيم ص ٣.

(٣) الزهد، للإمام أحمد ص ١٨٨.

هل من متعظٍ معتبر؟^(١)

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] على سبيل التأكيد بلام القسم و(قد)، أنه قد سهّل هذا القرآن الكريم، وجعله ميسراً للحفظ والتدبر، والاتعاظ والعمل؛ وذلك بما اشتمل عليه من القصص والأمثال، وما فيه من التشريع والأحكام، وبما ساق فيه من العبر والأخبار.

وقد تكرّرت هذه الآية ثلاث مرّات في سورة القمر، في الآيات: (٢٢، ٣٢، ٤٠)، وجاءت في كلّ مرّة عقب قصّة من قصص الأمم الغابرة.

جاءت أوّلاً بعد قصّة نبيّ الله نوح عليه السلام، وما كان من أمره مع قومه العاصين الذين أهلكهم الله بالطوفان، وأنجى على السفينة نوحاً ومن آمنوا معه.

وجاءت ثانياً بعد قصّة نبيّ الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود الذين عصوا واستكبروا، وكذبوا نبيّهم، وعقروا الناقة التي أرسلها الله إليهم امتحاناً واختباراً، فأهلكهم ربّهم بصيحة واحدة تركتهم هشيماً مفتتاً.

(١) كتبه: أ.د. وليد بن إبراهيم القصاب أستاذ الدراسات العليا في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

وجاءت ثالثًا بعد قصة نبيّ الله لوطٍ ﷺ مع قومه الذين ارتكبوا الفواحش والمنكرات، ولم يستجيبوا لدعوة نبيّهم ونُصحه، وبالغوا في المعصية المخالفة للفطرة الإنسانيّة السويّة، فأرسل الله عليهم حجارةً من السماء، وأنجى لوطًا وأتباعه من المؤمنين.

وهكذا تكرّرت هذه الآية في صيغة استفهام ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾؟ وقصد به الأمر؛ أي: اذكروا وتذكروا، أو قصد به الحثُّ على التذكُّر؛ إذ إنّ الله تعالى قد أودع في هذا الكتاب العظيم المعجز من المواعظ والعبر ما يجعله واضحًا ميسرًا لمن أراد الاعتبار والتدبُّر، وهو ميسر كذلك للحفظ في الصدور والعمل بالجوارح.

وكانت الحكمة من تكرير الآية ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ في أعقاب كلّ قصّة من القصص التي أشرنا إليها، وبهذه الصيغة الأمّرة الحاتّة، التنبيهية على ضرورة التدبُّر في أنباء الغابرين من الأمم، والاعتبار بمصير العاصين المكذّبين منهم؛ لأنّ التخويف والوعظ متى تكرّرا كان ذلك تأكيدًا يجعل الكلام أوقع في القلوب، وأردع للنفوس. والله تعالى أعلم.

مِفْتَاحُ الْفَرَجِ (١)

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

آيةٌ في كتاب الله تعالى من تدبّر معناها، وعمل بمقتضاها، استقامت حياته في سعادةٍ وحُبورٍ، وطمانينةٍ وسرورٍ، إنها التّرياقُ النَّاجعُ لكلِّ الهمومِ، ومِفْتَاحُ الْفَرَجِ لكلِّ الغومِ. هي قوله سبحانه في سورة الطّلاق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

إنها سنّة الله في خَلْقِهِ، وقانونُهُ الْمَطْرُدُ في أرضِهِ، فيا مَنْ أثقلت كاهليهِ الأَشْجانُ، وقيدت خُطواتِهِ الآلامُ والأحزانُ، لا تتلفّت هاهنا أو هناك باحثًا عن مَخْرَجٍ، فإنَّ المَخْرَجَ ميسرٌ أمامك، ولكن شمّر عن ساعد الجِدِّ لتحقيق شرطه، ألا وهو لزومُ التَّقوى.

وقد رُوِيَ عن أبي ذرٍّ ؓ أنه قال: جعل رسولُ الله ﷺ يتلو عليّ هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ثم قال: «يا أبا ذرٍّ، لو أنّ الناسَ كلَّهم أخذوا بها لكفّتهم» (١).

وتقوى الله: أن يجعل العبدُ بينه وبين ربّه وقايةً ممّا يُغضبه، ولا يكون ذلك إلا بامثالِ أوامره واجتنابِ نواهيه، أي أن يراه الله حيثُ أمره، وأن يفقده حيثُ نهاه.

(١) كتبه: أ. أيمن بن أحمد ذو الغنى، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالميّة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢١٥٩١) الرسالة، ١٧٨/٥ الميمنيّة، وابن ماجه (٤٢٢٠)، والدارمي (٢٧٢٥).

وهو ضعيف الإسناد.

ومن التقوى الفياء إلى الحق، والندم على الذنب، وكثرة الاستغفار، وقد روي من حديث ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن أَكثَرَ الاستغفارَ جعل الله له من كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

وأخبر سبحانه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، والاستغفار سببٌ للرزق والنعمة، والمعاصي سببٌ للمصائب والنقمة.

أجل، إن الله ليدفع عن المتقي المضرة بما يجعله له من المخرج، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق، والرزق يُعمُّ رزق الدنيا والآخرة. ومن هنا أن قالوا: ما افتقر تقي قط.

وإذن، إنَّ للتقوى فائدتين: أن يجعل الله للمتقي مخرجًا، وأن يرزقه من حيث لا يحتسب.

وإنما يُطلب الخروج من الضيق والشدة، وهذا هو الفرج والنصر والرزق، فبين سبحانه أنَّ فيها النصر والرزق^(٢).

فَاللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِأَسْمَائِكَ الْحَسَنِيَّ وَصِفَاتِكَ الْعُلَا، أَنْ تَجْعَلَنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ حَقَّ التَّقْوَى، وَأَنْ تَفْرِّجَ هُمُومَنَا وَغُمُومَنَا، وَتَجْعَلَ لَنَا مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٣٤) الرسالة، ١/ ٢٤٨ الميمنية، وأبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩). وهو ضعيف الإسناد، صحيح المعنى.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٦/ ٥٢ - ٥٦.

كان خُلِقَ القرآن^(١)

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

بُعث النبي ﷺ ليتمَّ صالح الأخلاق، وقد كان أحسنَ الناس خُلُقًا، فلا تسأل عن صدقه وعدله، ولا عن زهده وتواضعه، ولا عن رحمته وبرّه، ولا عن شجاعته وصبره، ولا عن سماحته وكرمه، ولا عن عفّته وحيائه، ولا عن مُروءته ونبله! فقد بلغ الغاية في كلِّ ذلك، وإنه لفضلُ الله يؤتیه من يشاء.

امتثل النبي ﷺ قولَ ربّه في أجمع آيةٍ نزلت في الأخلاق وهي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فتمكّن من طيب الأخلاق، واستولى على جميل الصفات. وقد عبّر الله سبحانه عن ذلك أبلغَ تعبيرٍ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، مؤكّدًا سموّ المنزلة التي بلغها خاتمُ أنبيائه في حُسن الخلق بثلاثة مؤكّدات؛ استعمال حرف التوكيد (إنّ)، ولام التوكيد المرحلقة في (لعل)، مع حرف الاستعلاء (على) الدالّ على تمام التمكّن من شريف الخلال، ورفيع الشّمائل والخصال.

وروي أنّ سعيد بن هشام سأل عائشة ﷺ عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: ألسنَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإنّ خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن^(٢).

(١) كتبه: د. عبد الله بن منصور الغفيلي، عضو هيئة التدريس بالمعهد العالي للقضاء، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥١/٢٣.

ولله دَرُّ عَلِيٍّ ﷺ فقد أصاب المَفْصِلَ في وصف رسول الله ﷺ بقوله:
«كان أجودَ الناس كَفًّا، وأشرحهم صدرًا، وأصدقهم لهجَةً، وألينهم عَرِيكَةً،
وأكرمهم عِشْرَةً. مَنْ رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه، يقول نَاعِيْتُهُ: لم
أَرَ قبْلَه ولا بعْدَه مثْلَه»^(١).

ولُصِّغَ إلى شهادة خادِمِه أنس بن مالك ﷺ، قال: «خَدَمْتُ رسولَ الله ﷺ
عَشْرَ سنين، والله ما قال لي أُمَّفًا قُطًّا، ولا قال لي لشيءٍ: لَمْ فَعَلْتَ كَذَا؟ وهَلَا
فَعَلْتَ كَذَا؟»^(٢).

فيا أيها الداعية، لن تسعَ الناسَ بمالك ولا جاهك ولا قُدْرَاتِكَ، وإنما
بِحُسْنِ خُلُقِكَ وطيب قولك، مقتفياً في ذلك سيرة نبيِّك ﷺ، ومن هنا أن قال
ﷺ: «ما من شيءٍ أثقلُ في ميزان العبد يومَ القيامة من حُسْنِ الخُلُقِ»^(٣).

فَاللَّهُمَّ ثَقِّلْ ميزاننا بحُسْنِ الخُلُقِ، واهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي
لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت.

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨)، والبيهقي في شُعب الإيمان ٢/ ١٤٨.

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٩٩).

أشنعُ الجِراءة! (١)

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

بعد أن أورد ربُّنا سبحانه في سورة الانفطار صوراً عظيمة لأهوال القيامة ومشاهدها، قائلاً: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، توجه بالخطاب إلى الإنسان المكذب بالبعث، العاصي لربه ﷻ، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]؟

إنَّ هذا الإنسانَ قد غرَّه جهله بالله تعالى، وإمهاله له، وغرَّه الشيطان الرجيم، كما غرَّته نفسه الأمارة بالسوء، فكذب وعصى.

أجل، إن الله ينادي عبده المغرورَ موجِّحاً له، حيث لم يتأمل آياتِ الله تعالى في نفسه، ولم ينظر إلى نعمه الظاهرة والباطنة عليه، فيقول سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

أي: أيها الإنسانُ، أيُّ شيء غرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ المَنَّانِ الذي أوجدك من العدم، وسوى خَلْقَكَ في أحسن صورة وأتمَّها، فجعلك معتدلاً القامة، جميلَ الصُّورة، بديعَ الخِلْقَةِ؟! أما ترى تناسبَ جوارحك، وعجائبَ حواسِّك،

(١) كتبه: أ. د. إبراهيم بن صالح الحميضي، أستاذ الدراسات العليا بجامعة القصيم.

ووظائف أعضائك، كيف تعمل وَفَقَ نظام عجيب، وَخَلَقَ بديع مُعْجِز، يشهد بعظمة الخالق جَلَّ جلاله، وَعِظَمَ مَنَّتَه عليك، وَجَمِيلَ عَنايَتِه بك؟! فهل يليقُ بك مع هذا التكريم أن تكذِّبَ بوعدِه، وتَعْصِي أمرَه، وتتجرَّأَ على حدودِه وَحُرْمَاتِه!؟

ووصف الربُّ تعالى في ختام الآية بالكريم؛ للتذكير بنعمته على العبد ولطفه به، فَإِنَّ الكَريمَ حَقِيقٌ بِالشُّكرِ وَالطَّاعَةِ^(١).

وقد رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَعْضِ مَشْرِكِي قَرِيشٍ، وَلَكِنَّ الخُطَابَ فِيهَا عَامٌّ، فَالأَلْفُ وَاللَّامُ فِي (الإنسان) لِلجِنْسِ، فَتَشْمَلُ كُلَّ مُنْكَرٍ لِلبَعْثِ، كَمَا أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ لِكُلِّ مَنْ غَرَّهَ جَهْلُهُ وَشَيْطَانُهُ وَنَفْسُهُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، فَعَصَى رَبَّهُ، وَتَعَدَّى حُدُودَهُ، وَتَجَرَّأَ عَلَى حُرْمَاتِهِ.

وعلى المسلم أن يتدبَّرَ هَذِهِ الآيَاتِ الكَريمَةَ وَيَتَعَطَّ بِهَا، فَيَعْتَرِفَ بِمَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَلُطْفِهِ بِهِ، وَيَحْمَدَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَحْذَرُ الغَفْلَةَ وَالغُرُورَ، وَيَتَذَكَّرُ العَرَضَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الدِّينِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣/ ١٧٥.

فهرس المحتويات

م	عنوان المجلس	الكاتب	الصفحة
	المقدمة		٥
١	حقّ التلاوة	د. محمد بن عبد الله القحطاني	٧
٢	نعم المكافأة	أ. د. عمر بن عبد الله المقبل	٩
٣	وعيدٌ ووعْدٌ	د. محمد حسن الطيّان	١١
٤	مجرابُ العبوديّة	د. عبد الله بن بلقاسم عبد الله	١٣
٥	شئان ما بين إرادة وإرادة!	اللجنة العلميّة بمركز تدبّر	١٥
٦	الفتنة الكبرى	أ. رامي بن أحمد ذو الغنى	١٧
٧	لا يستويان!	اللجنة العلميّة بمركز تدبّر	١٩
٨	إيّاك وبُنيّات الطريق	د. محمد حسن الطيّان	٢١
٩	حصنُ المتقين	اللجنة العلميّة بمركز تدبّر	٢٣
١٠	عاقبةُ الشقاق والتنازع	د. عبد المحسن بن زين المطيري	٢٥
١١	الفرحةُ الحقيقيّة	اللجنة العلميّة بمركز تدبّر	٢٧
١٢	سنّة دوام الأُمم	اللجنة العلميّة بمركز تدبّر	٢٩
١٣	الكلمةُ الطيّبة	أ. د. وليد بن إبراهيم القصاب	٣١
١٤	طوبى للمُحسنين!	أ. عبد الله بن عبده العواضي	٣٣

م	عنوان المجلس	الكاتب	الصفحة
١٥	عِقَّة اللِّسَان	د. محمَّد بن مصطفى السيِّد	٣٥
١٦	تفخيمُ شأن الصَّلَاة	أ.د. عُويصُ بن حمود العَطوي	٣٧
١٧	فلنُعظِّم ما عَظَّم اللهُ	اللجنة العلميَّة بمركز تدبُّر	٣٩
١٨	السَّعَادَةُ فِي اتِّبَاعِ السَّنَةِ	أ. عبد الرحمن بن عادل المشد	٤١
١٩	طلبُ المعالي	أ.د. ناصر بن سليمان العمر	٤٣
٢٠	الصَّلَاةُ مِيزَانٌ	اللجنة العلميَّة بمركز تدبُّر	٤٥
٢١	الإمامةُ في الدِّين	اللجنة العلميَّة بمركز تدبُّر	٤٧
٢٢	الأمَّةُ المرحومة	اللجنة العلميَّة بمركز تدبُّر	٤٩
٢٣	أهلُ الغلبةِ والتَّمكينِ	د. توفيق بن علي زبادي	٥١
٢٤	اللهُ خيرُ حافظًا	اللجنة العلميَّة بمركز تدبُّر	٥٣
٢٥	أجدى الأصحاب	اللجنة العلميَّة بمركز تدبُّر	٥٥
٢٦	عمادُ التدبُّر	الشيخ عبد اللطيف التويجري	٥٧
٢٧	هل من متَّعِظٍ معتبرٍ؟	أ.د. وليد بن إبراهيم القصاب	٥٩
٢٨	مِفْتَاحُ الفَرَجِ	أ. أيمن بن أحمد ذو الغنى	٦١
٢٩	كان حُلُقُه القرآن	د. عبد الله بن منصور الغفيلي	٦٣
٣٠	أشنعُ الجِراءِ!	أ.د. إبراهيم بن صالح الحميضي	٦٥
٦٧	فهرسُ المُحتَوِيَّاتِ		